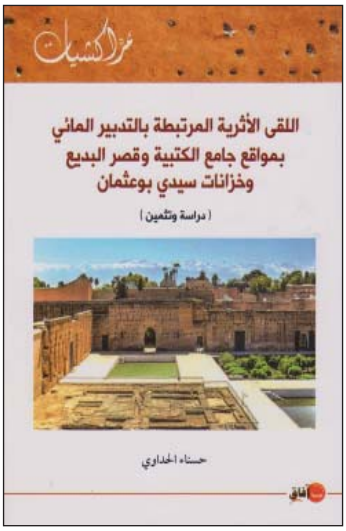

Ḥasnāʾ al-Ḥaddāwī.- *Al-luqā al-ʾathariyya al-murtabiṭa bi at-tadbīr al-māʾī bi mawāqiʿi Jāmiʿ al-kutubiyyīn wa khazzānāt sīdī bū ʿuthmān wa qaṣr al-badīʿi. Dirāsatun wa tathmīn* (Murrākush: Manshūrāt Muʾassasatu ʾĀfāq li ad-dirāsāt wa an-nashr wa al-ittiṣāl, 2018), 288p.

حسناء الحداوي.- اللقى الأثرية المرتبطة بالتدبير المائي بمواقع جامع الكتبية وخزانات سيدي بوعثمان وقصر البديع. دراسة وتثمين (مراكش: منشورات مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، 2018)، 288ص.

يكتسي موضوع الماء راهنيته من ظاهرة التغيرات المناخية التي طبعت هذا العصر. ولهذا السبب صار البحث في الأساليب والتقنيات التي استعملها السلف لحل معضلة تدبير الماء في حالة الندرة أو الفيض والغمر، من بين القضايا الواجب على الباحثين إبرازها والاهتمام بها. وهنا تكمن أهمية هذه الدراسة التي كشفت عن جانب مهم من الحضارة والهوية المغربية مما أغفلته المصادر التاريخية المكتوبة، إضافة إلى إماطتها اللثام عن مجموعة من اللقى الأثرية الثمينة وملء بعض البياضات والفراغات التي وشمت تاريخنا التقني.

على امتداد 256 صفحة، فصلت الباحثة في جملة من القضايا المرتبطة باللقى الأثرية؛ فبحثت في أدق التفاصيل من قبيل المكان الذي استخرجت منه، وجردها وتصنيفها، وطبيعة المادة التي صنعت منها، والأحجام والمقاييس والأشكال والزخارف التي وجدت عليها، وطبيعة استغلالها، إلى غير ذلك. كما توقفت الباحثة عند مجموعة من المصطلحات والألفاظ متعقبة إياها في المعاجم اللغوية ومتون المصادر والدراسات الغربية خاصة منها الفرنسية، فضلا عن محاولتها وضع تلك اللقى الأثرية في إطارها التاريخي بمقارنتها مع مثيلاتها في بلدان الجوار، خاصة الأندلسية منها.

ويضم الكتاب بين دفتيه مقدمة عامة وثلاثة أبواب وخاتمة. فبعد تقديم المؤلفة لأهم المصادر المعتمدة في دراستها، مع تصنيفها ونقدها، انتقلت إلى الباب الأول لتذكر في البداية بمراحل البحث الأركيولوجي في المغرب مُسجلة مروره بمرحلة الدبلوماسية

والهواة التي انطلقت من القرن التاسع عشر لتنتهي سنة 1912، وقد اتسمت نتائج هذه المرحلة بالسطحية والتسرع، وتقديم صورة غير حقيقية عن المجالات المدروسة، وخاصة منها مجال مراكش وأحوازها. وكان لابد من انتظار عام 1912، مع توقيع معاهدة الحماية لتنطلق مرحلة جديدة أصبحت فيها الدراسات الأثرية أكثر عمقا ووضوحا مع ما أنتج من تآليف عمت مجالات مختلفة مرتبطة بالمعيش اليومي للمغاربة. وعلى الرغم من إخفاء تلك الفورة في مجال التأليف التاريخي والأثري وغيره أهدافا استعمارية، إلا أنه حصل تراكم معرفي كان له كبير الأثر على ظهور تيار جديد من الباحثين عام 1947 يهتم بالآثار الإسلامية، بعدما كان البحث الأثري في البداية مقتصرا على الحقبة القديمة وخاصة المرحلة الرومانية. وفي مرحلة ثانية من سنة 1947 إلى حدود سنة 1956 سيتخصص مجموعة من الأثريين الفرنسيين في مجال الآثار الإسلامية من أبرزهم هنري تيراس وجورج مارسي وجاك مونيي وبول بيرتيي وگاستون دوڤيردان وشارل ألان وغيرهم. ولم تغفل المؤلفة الإشارة إلى أحمد المكناسي باعتباره أول خبير مغربي في مجال الأركيولوجيا، وإلى الباحث المصري عثمان عثمان إسماعيل صاحب حفريات شالة وموسوعة العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى. واستمرت الباحثة في التذكير بمعضلات الأركيولوجيا الإسلامية المغربية، خاصة بين 1956 إلى حدود 1975، حيث اتسمت هذه المرحلة بالركود وغياب الحفريات، وذلك لغياب أطر مغربية مؤهلة في مجال علم الآثار والتراث، باستثناء السيدة نعيمة الخطيب بوجيبار التي حاولت الرفع من مستوى إيقاع البحث الأثري، كما كانت وراء إعادة ظهور **النشرة الأثرية المغربية** (B.A.M). كما تتبعت المؤلفة مسار البحث الأركيولوجي من سنة 1975 إلى الآن، والذي عرف طفرة نوعية في مجال التقنيات وترميم المباني الأثرية والتاريخية والفنون التطبيقية وتأهيل الصناع والحرفيين المتخصصين في الترميم.

وانتقلت الباحثة بعد ذلك إلى أهم الإجراءات التي اتخذتها الدولة المغربية للنهوض بالمجال الثقافي، وخاصة بالشأن المتعلق بالتراث المادي واللامادي، وذلك بخلق وزارة الشؤون الثقافية، وإبرام اتفاقيات مع مجموعة من المعاهد المتخصصة في مجال الآثار والتراث لتكوين وتأطير أطر مغربية، وخلق أوراش أثرية في كل ربوع المملكة، لتتوج كل هذه المجهودات بتدشين أول مؤسسة مغربية تعنى بالآثار والتراث، وهي المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط بدعم وإشراف الراحلة جوديا حصار بن سليمان.

بعد هذا التأصيل للأركيولوجيا المغربية، خصصت المؤلفة البابين الثاني والثالث لدراسة اللقى الأثرية موضوع الدراسة، حيث قامت بجردها وتصنيفها وأخذ صور فوتوغرافية لها من كل الجوانب، مع وضع رسوم ومقاطع لكل قطعة على حدة، ملتزمة في ذلك بقواعد البحث العلمي مع الاعتماد على الأرشيف الذي وجد مع هذه اللقى، والذي يحتوي على معلومات في غاية الأهمية ساعدت إلى حد ما الباحثة لمعرفة أماكن جلب تلك اللقى.

ومن خلال دراسة النقائش التي زينت بها بعض المثابات، وخاصة تلك التي وجدت بموقع جامع الكتبيين، توصلت الباحثة إلى معلومة دقيقة، من بينها أن إحدى تلك النقائش تحمل اسم الله قد زينت نهايتها بتوريق شبيه بالكتابات التي نقشت على آثار مرابطية بمسجد تلمسان ومنبر الكتبيين وعلى منبر الجامع الكبير بندرومة في الجزائر. وحسب الباحث الفرنسي جورج مارسي، فإن هذا النوع من الكتابات المزخرفة ظهرت في القرن العاشر الهجري واستمرت إلى القرن الحادي عشر. وإلى جانب مثابات جامع الكتبيين، توقفت الباحثة عند خزانات سيدي بوعثمان التاريخية ومثاباتها (Margelles)، حيث ميزت فيها بين نوعيين مختلفين من حيث الشكل وتركيبة الطين، تشبه إلى حد كبير تلك التي استعملت في المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الموحدي، وهو ما يعكس النشاط والتبادل الثقافيين الذين عرفتهما بلاد الغرب الإسلامي خلال حكم الدولتين المرابطية والموحدية.

وفضلا عن ذلك، سلطت الباحثة الضوء على أشكال أخرى من اللقى المرتبطة بتدبير الماء، من قبيل الأحواض المرتبطة بالوضوء وتلك الخاصة بتجميع الماء وتخزينه، والقواديس الرصاصية والفخارية لجلب الماء الصالح للشرب أو صرفه، مع وضع جدول يوضح النوعية والتسميات التي أطلقت عليها والمقاييس.

وفي الختام، لا يسعنا إلا التنويه بهذا العمل الجاد والرصين، وبالتأطير المنهجي الذي حظي به، فقد جَدَّد معرفتنا بتقنيات تدبير الماء خلال الحقبتين الوسيطة والحديثة بمدينة مراكش وحوزها، مع تثمينه اللقى الأثرية المحفوظة بمستودعات قصر البديع ودعوته لاستثمارها كرافعة للتنمية.

عبد اللطيف خرباش
جامعة القاضي عياض بمراكش